رفرفة الجناحين

قصة بقلم
روضة الفرخ الهدهد
رسوم
أطفال مدرسة المنهل

طبع بدعم أمانة عمان الكبرى
2005

بسم الله الرحمن الرحيم

ظلَّ طوالَ الوقتِ يدعو "محمداً الدرة" أن يأتيه، قالوا له إنَّ "محمداً الدرة" يأتي في الساعات الحرجة وعند الحاجة، يأتي مُرفرفاً بجناحيه لمساعدة الأطفال المحتاجين له... وهل هناك مَن هو بحاجة له: أكثرَ منه؟...

ألم يرَ الدبابات تُغلقُ الطريق من كلِّ جانبٍ؟... ألمْ يعلم أنَّ أمهُ مُحاصرةٌ في مكانٍ ما، لا يعرفهُ ولا يعرفُ كيف يصلُ إليه؟

كانَ فوازٌ في المنزلِ ، لمْ يُغادرْهُ مُنذُ أيامٍ .. وقد طلبَتْ أمُّهُ منهُ أنْ يَبقى قريباً منْ جدِّهِ علَّها تشتري بعضَ الأغراضِ منَ المحلاتِ المجاورةِ ... ولمْ يمضِ بعضُ الوقتِ حتى سمعَ أصواتَ إنفجاراتٍ في الشارعِ ، وما إنْ نظرَ إلى الشارعِ العامِ ، حتى وجدَ فيهِ دبابةً كبيرةً عليها نجمةٌ ، ومنْ خلفِها دبابةٌ أخرى تقتربُ.. نظرَ الى سطحِ منزلٍ قريبٍ فرأى فوهةَ بندقيةٍ موجهةً إليهِ ... انسحبَ إلى الجانبِ الآخرِ منَ المنزلِ وقد ملأَ الرعبُ قلبَهُ فلمْ يدرِ ماذا يفعلُ؟ وماذا يفعلُ وقد أحاطَ الأعداءُ بالمنزلِ منْ كلِّ ناحيةٍ؟ وماذا يفعلُ ووالدتُهُ لم تعدْ بعدُ، وجدُّهُ نائمٌ في الغرفةِ لا يتحركُ؟

مَلأَ الخَوفُ قلبَ فوّازٍ ، فاختبأَ تحتَ السرير وأحسَّ فجأةً بالهدوءِ التّامّ يَلفُّ المنزلَ كلَّهُ... فخافَ أكثرَ.. تذكّرَ ذلكَ النّهارَ الذي كانَ جدُّهُ قدْ خَرجَ فيهِ من بَيتِهِ بهدُوءٍ وسكينةٍ فعادَ دونَ قدمَيْنِ. كلَّ يومٍ يَذهبُ جدُّهُ إلى عَمَلِه ... وكلُّ جدٍّ وأبٍ وأمٍّ يذهَبُونَ إلى أعمَالِهِم في كلِّ أنحاءِ الدُّنيَا ، ولكنّ جدّهُ لمْ يَكدْ يصلُ سيّارَتَهُ حتى هزَّ الانفجارُ الدّارَ وقطعَ السّكينةَ والهُدوءَ . فتحطّمتْ أواني الزّهورِ وتهشّمتْ كاسَاتُ الشّاي ، وانهَالَ زجَاجُ الشّبابيكِ على الأرْضِ بَيْنمَا ارْتمَى فوّازٌ على الأرض بعُنْفٍ شديدٍ ...

ما الذي دفعَ فوازاً بهذهِ الشدّةِ؟ وما الذي حصلَ في الخارجِ ؟ كانَ فوازُ في ذلكَ النهارِ صغيراً ، ولكنّه فهمَ أنّ الأعداءَ وضعوا لجدّهِ قنبلةً في سيّارتهِ، فما إنْ وضعَ رجلَهُ على ضاغطةِ البنزينِ ، حتى انفجرتِ القنبلةُ وبانفجارِها فقدَ الجدُّ قدميهِ. وظلَّ طريحَ الفراشِ لا يغادرُهُ ... فما الذي يمكنُ أنْ يحصلَ اليومَ لأمّهِ منْ هؤلاءِ الأعداءِ؟! وما الذي سيحصلُ لهُ هوَ إنْ ألقتِ الدبّابةُ قذيفةً على الدارِ ، أوْ ضغطَ القنّاصُ على زنادِ بندقيّتهِ ؟!

دَخلَ فوازٌ تحتَ السّرير ... ومنْ تحتِ السريرِ نظرَ إلى الأعلى ، فإذا به يرَى وعلى الجَانبِ الآخرِ من الدارِ ، جُندياً آخرَ على السّطحِ ويَدُهُ على الزّنادِ ... اللهُ أكـبـرُ على هذا الزّناد وهذهِ البَنادقِ ما أقساهَا ...لِماذا تَبقى أصابعُ هؤلاءِ الجُنودِ على زنادِ بَنادقِهم ؟ ألا يَتعبُون؟ ألا يَشعُرونَ بالمَلل والضّجَر؟ سرح فوازٌ بذهنه، وفجأةً تذكرَ درّاجَتهُ، فأحسَّ بالحَنينِ الشّديدِ لهَا... تمنّى لو يتمكّنُ من ركوبِها، والضغطِ على بدّالتيهَا والانطلاقِ إلى السّاحاتِ المُجاورَةِ ، يَلعَبُ ويلعبُ دونَ أنْ يَملَّ من اللعبِ ودونَ أنْ تلحَقـهُ دبّابَةٌ أو يُطلِقَ عليـهِ القنّاصُ النّارَ .

مِنْ أسفلِ السَّرير ، ومِن الزَّاويَةِ الصَّغيرةِ أخذ فوَّازٌ يُراقِبُ القنَّاصَ عن بُعدٍ ... تأمَّلَ بِدْلَتَهُ الكاكيَّ الدَّاكنة..لفتَ نَظرَهُ مالا يقِلُّ عن عَشرةِ جُيُوبٍ هنا وهُناك في البَدلةِ ... ماذا يَحْمِلُ هذا الجُنديُّ في جُيوبِه يا تُرى؟!

وهذه الخوذةُ الحَديديَّةُ فوقَ رأسِهِ كم وزنُهَا ؟ وكيفَ يتحمَّلُ ثِقَلها على رَأسِهِ طولَ النَّهارِ؟... وهذا الجهَازُ المعلَّقُ أمَامَ فمِهِ ... مَع مَن يَتحدَّثُ بِهِ؟ ... وتلكَ البُندُقيَّةُ التي لا تفارِقُ أصابعَهُ زنَادَهَا كمْ وزنُهَا يا تُرى؟

وكَمْ مَرَّةً تدرَّبَ على إطلاقِ النَّارِ منهَا؟ ثم تأمَّلَ فوَّازٌ الصدريَّةَ التي تلفُّ صدرَ الجنديِّ .. صدريةٌ سميكةٌ محمولةٌ على الكتفِ وملفوفةٌ حولَ الخصرِ كأنَّهَا حقيبةٌ مدرسيةٌ مليئةٌ بالجيوبِ الخارجيَّةِ... ماذا يَحمِلُ بداخِلِهَا؟ لعلَّهَا مليئةٌ بالرَّصاصِ والقنابلِ ... لعلَّهَا مليئةٌ بالدَّمارِ والقتلِ ... لماذا يُصِرُّ الجُنودُ على القتلِ والتدميرِ يا تُرى؟

وتذكَّرَ فوَّازٌ حقيبةَ مدرستِهِ التي لمْ يحملْهَا مُنذُ زمنٍ .. مُنذُ بدأتِ الانتفاضةُ لمْ يذهبْ فوَّازٌ إلى مدرستِهِ إلا قليلاً...

ما أجملَ المَدرسةِ وما أحلى رفقةَ الصِّحابِ ... لمْ تكنْ حقيبةُ مدرستهِ ثقيلة: ولمْ يَحمِلْ بها إلا كُتبَ العلوم و الرياضياتِ والدينِ والعربي ... كُتبٌ فيهَا فائدةٌ لهُ ولوَطنهِ وللعالم أجمعَ ... ألمْ يكُنِ العربُ المسلمُونَ أصحابَ حَضَارةٍ فحفظوا للعالم عُلوم القُدمَاءِ وزادُوا عليهَا وطوَّروهَا؟ ألمْ يكونُوا أصحَاب رسالةٍ سماويَّةٍ نَشرُوهَا في أنحاءِ المَعمُورةِ؟ فلماذا يُضيِّقُ عليهمُ الأعداءُ اليَومَ بيوتَهم ومدارسَهم؟ ولماذا يُحاصِرونَ جوامعَهم وكنائسَهُم؟!

والقبضِ صدرَ فوازٍ وقد تصورَ امَهُ مُحاصرةً في مكانٍ ما ولا تستطيعُ التحرُكَ منهُ ولا العودةَ إلى المنزلِ .. أحسَ بالقلقِ الشديدِ عليها والخوفِ من هُبُوطِ الليلِ وهيَ خارجَ البيتِ... نظرَإلى نفسِهِ فلمْ يُعجبْهُ أنْ يَبقى تحتَ السريرِ ينتظرُ، وماذا ينتظرُ؟ محمداً الدرة؟ وأينَ هوَ الآنَ ..بلْ هلْ صَحيحٌ أنْ "مُحَمَّداً الدُرَّةَ" يأتي بجناحَينِ لإنقاذِ أطفالِ فلسطينَ عندَ الحاجةِ ؟ هلْ صَحيحٌ أنَهُ يَمُرُ بينَ الدباباتِ والجنودِ دُونَ أنْ يُحِسُوا بهِ؟ فهلْ يَحضرُ الآنَ فعلاً لنَجْدَتِهِ...

قامَ فوازٌ إلى بابِ الدارِ ونَظرَ مِن ثقبِهِ ... فرأى منظراً توقفَ لهُ قلبُهُ .. رأى أمَهُ تحملُ بينَ يديها أكياساً وتقتربُ مِنَ الدبابةِ ذاتِ النجمةِ ..كانتْ تسيرُ بهدوءٍ وثقةٍ كبيرين، فابتسمَ فوازٌ وشعرَ بالحبورِ لشجاعتِها ..ولكنَهُ لمْ يكدْ يبتسمُ حتى حَدثَ ما توقعَهُ ... وانقلبَ فرحُهُ غماً.. لقدِ اقتربَ عددٌ مِنَ الجنودِ من امِهِ واوقفوها، بينما أصابعهُم اللعينةِ على زنادِ بنادقِهم ... وشاهدَ فوازٌ أمَهُ تشيرُ بيدِها إلى المنزلِ و كأنها تقولُ إنَ هذا هوَ بيتُها وأنها عائدةٌ إليه ..

ولكنَ الجنودَ اقتربوا منها أكثر، يحاولون أخذ الأكياسِ منها بالقوةِ وتفتيشَها .. ووقفَ قلبُ فوازٍ وهوَ يرى أمَهُ بينَ أيدي الجنودِ بمفردِها ؟ هي كبيرةٌ وشجاعةٌ ، وأنا صغيرٌ وخائفٌ..فماذا أعمل؟ أأنادي على جدي ليقفَ معَها ؟ وكيفَ يقفُ جدي معَها وهوَ مُقعدٌ وبلا قدمينِ " ؟؟؟

وازدادَ قلقُ فوازٍ وتسارَعتْ ضَرَبَاتُ قلبِه ، فأمُّه لا تزالُ بينَ الجنودِ ، والأكياسُ بيدِها والحوارُ يبدُو صاخِباً .. واقتربَ جنديٌ بحذرٍ واختطفَ أحدَ الأكياسِ وكأنَّ بهِ حيّةً يَخافُ أنْ تلدَغَهُ... واقتَرَبَ آخرُ واختطفَ كيساً آخرَ، وأمُّه تقاومُ الاثنينِ معاً .. ورآها تُبْعِدُ البُنْدُقيّةَ التي بيدِ الجنْديِّ عنهَا، فابتسَمَ ابتسامَةً خافتةً وسَمِعَ نفسَه يَقولُ.. لله ما أجرأها ..! لله ما أشجَعَهَا ..! ولكنَّهُ سُرعَانَ ما قطبَ حاجبَيْه عندَمَا رَأى الجُنديَّ يَضرِبُهَا بكعْبِ بُنْدُقيّتِه، فأحسَّ أنَّ قلبَهُ يتقطّعُ داخلَ أحشائِه !! كيفَ يَضرِبُهَا الجنديُّ أمامَ ناظرَيْه ولا يُحرّكُ ساكناً؟ أيقفزُ لإنقاذِهَا؟؟؟

مرت دقائق حسبها فواز ساعات ، وإذ بالأم تحمل أكياسها وتسير، رآها لا تزال تسير بنفس الشجاعة والكبرياء . رأى رأسها شامخة ، وقامتها مستقيمة ، بل لقد رآها وقد تطاولت قامتها عشرات المرات ..ولما شاهدها تحمل حبات بطاطا من الكيس وترمي بها الدبابة : لم يدر ماذا يفعل ، أيضحك أم يحبس أنفاسه .. لقد شعر فعلا بالفرح والعزة لموقف أمه ..فما أن وصلت باب المنزل حتى هجم عليها يقبلها ويقبل يديها وينفض الغبار عن ملابسها ويقول : ماما ... ماما ... الحمد لله على سلامتك ... الحمد لله على سلامتك...

لم تكد الأم تدخل المنزل وتقفل الأبواب والشبابيك حتى سمع فواز طرقات شديدة على باب المنزل ... ولم تكد الأم تتحرك ناحية الباب حتى كان الباب مكسوراً واندفع الجندي ببندقيته وأصبعه على زنادها ، وبخوذته الحديدية على رأسه، وبحقيبة القتل والدمار على جسده!!.

تجَمَّدَ فوازٌ في مكانِهِ ...
تَراجعَ حـتـى انزوى في
زاويـةِ الـسّـــريـر ،

وظلَّ يتراجعُ حتى اختفى تَحتَ السّرير... ومِن الزاويةِ وعن بُعدٍ إلتفتَ إلى الخَارجِ فرَأى القنّاصَ لا يَزالُ واقفاً ، فهبَطَ قلبُهُ بينَ رجليهِ ... ألمْ يَكنْ فوازٌ بحاجةٍ إلى "محمّدِ الدُّرة" بجناحَيهِ الآنَ ؟ وهلْ هُناكَ وقتٌ أحوجُ من هذا الوقتِ ليأتيَهُ محمدٌ ويُساعدَهُ كما قالوا لهُ ؟ هلْ سَيأتي يا تُرى أم سَيُجهِزُ الجنودُ عليهِ وعلى أمّهِ منْ داخلِ المنزلِ وخارجهِ ؟
كانَ فوازٌ مُتعباً خائفاً مُنهكاً ولكنّه كانَ مُنتظِراً مُحمّداً الدُّرة بنفاذِ صبرٍ؛ فناداهُ بكلِّ حُرقةٍ وصدقٍ .

لم يرَ فوازٌ أحداً ، ولكنه أحسَّ برفرفةِ جناحَيْنِ قريباً منهُ ؛ وأحَسَّ بهبوبِ نسيمِ عطرٍ مَلأَ صدرَهُ ... خافَ لوهلةٍ ونظرَ حَولهُ فلمْ يشاهدْ أحداً... ولكنَّهُ سُرعانَ ما سَمعَ صوتاً خافِتاً يقول: هيَّا يا فوازُ... هيَّا بنا نذهَبُ ..

وانتفضَ فوازٌ مِمَّ سَمعَ وقالَ في نفسِه: منْ يناديني يا ترى منْ ، منْ ؟

قال محمدٌ : أنا يا فوازُ ..أنا محمدُ الدرةِ .. هيا بنا نذهب ، والتفتَ فوازٌ حوله في كل الإتجاهات فلم يرَ أحداً .. كانَ يسمعُ رفرفةَ الجَناحَيْنِ ويشمُّ رائحةَ العِطْرِ ، ولكنَّهُ لمْ يرَ أحداً.

قالَ فوازٌ بضيقٍ : - أينَ أذهبُ والجنديُّ في
المَنزلِ... هلْ أتركُ أمّي وَحدَها ؟ هَلْ أتركُها
وجَدّي المُقعَدُ لوحدِهِما ؟
وصمتَ فوازٌ هُنيهَةً ثمَّ أضافَ بحزنٍ وبصوتٍ
خفيضٍ : لا ... لنْ أذهبَ معَكَ .

قالَ محمدٌ الدرةْ :

- ألم تكنْ تناديني منذْ أكثرَ من ساعةٍ...

ألم تكنْ بحـــاجـــةٍ لي لأنجـدكَ من الأعداءِ؟

- نعم ولكني كنتُ أريدُ أن أنجـــو بنفسي... أمَّا الآنَ فلا يُمكنُ أن أتركَ والـدتي وجـــدّي مَعْ هذا الـجُنديّ القاتلِ...

- ومن قالَ إننا سنتركُهُمَا؟ هيّا بنا ننقذهُمَا..

فرحَ فوازٌ: فها قدْ جاءَ محمدٌ الدرةُ ، وها هُوَ سَيُنقذ أمهُ منَ الأشرارِ.

أحسَّ فوازٌ برفرفةِ أجنحةٍ خفيفةٍ ، وإذْ به يَرتفعُ عَنَ الأرض ... هُوَ هكذا محمدٌ الـدرةُ ، ومنذ اسـتشـهـدَ برصَـاص القنّاص الإسرائيليِّ وهوَ يأتي لإنقاذ أطفـالِ فلسطينَ ، فـيَحـملِهُمْ على جَناحـيْـهِ ولا يَراهُمْ أحَـدٌ !!.

كانَ محمدُ الدرّةُ قدْ استشهدَ في غزّةَ بيدِ قناصٍ إسرائيليٍّ ... كانَ قدْ خرجَ معَ والدِهِ لشراءِ بعضِ الحاجاتِ ، فإذا بهما محاصَرانِ بينَ عددٍ منَ الجنودِ القتلةِ ... احتمى الأبُ وابنُهُ عندَ جدارٍ قربَ برميلٍ فارغٍ .. صرخَ الأبُ كثيراً كيْ يُوقِفَ الجنودُ إطلاقَ الرّصاصِ ... حرّكَ يديْهِ في الهواءِ علّ الجنودَ يعرفونَ أنّهُ لا يحملُ أيَّ سلاحٍ ولا حتّى أيَّ حجارةٍ ، ولكنَّ الجنودَ لم يُوقِفُوا إطلاقَ الرّصاصِ ..

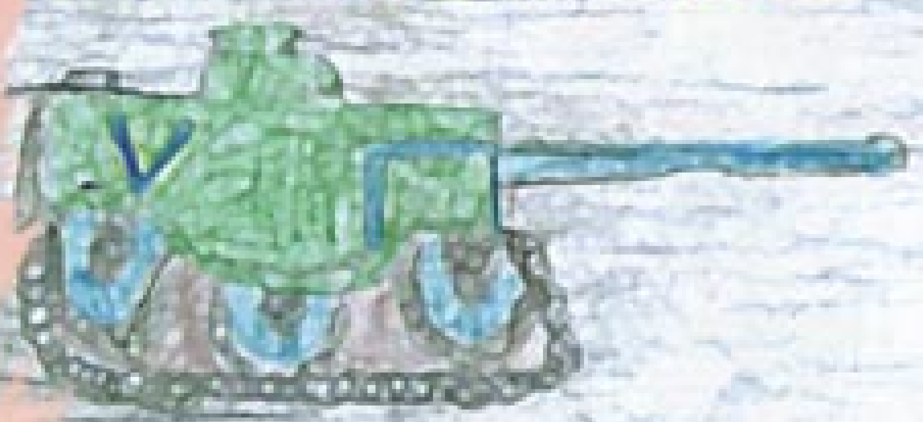

ازدادَ صُراخُهُ وقد إرتفعَ صُراخُ ابنِهِ محمدٍ خائفاً مُحتمياً به منادياً بابا... بابا... ولكنَّ أحداً لمْ يَسْمَعْهُما ... ازداد إطلاقُ الرَّصاص ... اختبأَ مُحمدٌ خلفَ والدِهِ وهوَ يصرخُ ويبكي ... وأحاطَ الوالدُ ابنَهُ بيدٍ بينَما رفعَ الأخرى يُنادي على أيِّ أحدٍ .. أيِّ أحدٍ يَحميهِ من الرَّصاصِ ، فلمْ يُجبْهُ أحدٌ .. ولمّا أحسَّ برأسِ ابنهِ وقد ثقلَ على جسدِهِ ، صرخَ أكثرَ : الولدُ ماتَ ... حَرامٌ عليكمْ ... حَرامٌ عليكمْ ...الولدُ ماتَ... ولم يسْمَعْهُ أحَد.. فقط : مُصورٌ صحفيٌّ، كانَ في المَوقع ، شاهدَ الحادثَ فصوّرهُ ليبثَّهُ على كلِّ شاشاتِ التلفازِ في العالمِ ليراهُ العالمَ كلَّه - بملياراتِه - ...بعُيونِه وآذانِهِ وليسمُّوا الطفلَ : محمد الدرة.. شهيدَ العالم ..

وللشهيدِ عندَ اللهِ سبحانَهُ وتعالى مكانَةٌ كبيرةٌ ...إنَّهُ شهيدٌ ماتَ على أرضِ وطنِهِ ، قتلهُ الجنودُ القنّاصةُ الذينَ أرادُوا احتلالَ وطنِهِ وهدمَ بيتِهِ وقتلَ أهلِهِ... يومَها أصبحَ محمدٌ الدُّرَّةُ عندَ ربِّهِ ... طفلاً شهيداً ، طفلاً أحبَّهُ كلُّ الناسِ الذينَ يحملونَ في قلوبِهِم ذرّةً منَ الإنسانيّةِ ... فمَنْ يقتلُ الأطفالَ إلا اليهود الذينَ قسَتْ قلوبُهم فهيَ كالحجارةِ أوأشدُّ قسوةً ؟.

أحسَّ محمد الدرة بنفسِهِ بمعاناةِ أطفالِ فلسطينَ فأخذَ على نفسِهِ عهداً بأنْ يُساعدَ هؤلاءِ الأطفالِ الفلسطينيينَ كلما نادوهُ أو احتاجُوا إلى المساعدةِ .

قال محمد : هيا بنا يا فواز، صعد فوازُ فوق جناحي محمدٍ فلمْ يَعُدْ يرهُ أحد.. وتحرك الاثنان فورا تجاه الجُنديِّ ، وتجاهَ بندقيتهِ بالذاتِ ... أخذها فوازُ ووضع يَدَهُ على الزّنادِ ... أرادَ أن يُجَرِّبَها ... وما إن رأتْ أمُّ فوازٍ الجنديَّ بلا بندقيةٍ حتى أسرعَتْ تُهاجِمُهُ بالمكنسةِ وتطردُهُ من بيتِهَا ، فانطلقَ الجنديُّ من بابِ الدارِ راكِضاً باتجاهِ رفاقهِ و الدبابةِ .

اتجهَ فوازٌ إلى حيثُ جدِّهِ المقعدِ ... أعطاه البندقيَّةَ و تحرَّكَ فوراً معَ محمدٍ إلى بابِ الدارِ ... وفي ثوانٍ قليلةٍ كانا قُربَ الدبابةِ . شدَّ فوازٌ أنتينَ الدبابةِ الطويلَ فكسرهُ ثمَّ أدارَ فوهَةَ الدبابةِ ووجَّهها إلى حيثُ الدبابةُ الأخرى ... ثمَّ حملَ الحجارةَ ورمَى بها الدبابةَ . ومِنْ بعيدٍ رأى فوازٌ عدداً مِنْ الأطفالِ يقتربونَ من الدبابةِ ويلقونَ عليها حجارتَهم ويكسرونَ الأسلاكَ الظاهرةَ منها ويتعربشون على عجلاتها : صحيحٌ أنَّ الدبابةَ كانت كبيرةً جداً إلا أنَّ عددَ الحجارةِ التي انهالتْ عليها كان هائلاً فتحركت الدبابةُ مُبتعدةً بأقصى سُرعةٍ ...

سُرَّ فوازٌ كثيراً لما جرى...وفرحَ لمنظر الدبّابةِ تحملُ الجُنودَ وترحلُ .

وانطلقَ الأطفالُ يُصفقونَ ويُهلّلونَ فرحاً لرحيل دبّابةِ الموتِ والقهرِ : نظرَ فوازٌ صوبَ القنّاص فإذا بهِ لا يَزالُ واقفاً ... فقالَ لمحمّد : ماذا ترى يا تُرى؟ هل نذهبُ إليه؟ - نعم ... نذهبُ إليه في الحال ...

انطلقَ الاثنانَ فلمّا اقتربا منَ القنّاص قامَ فوازٌ بنزعِ الخوذةِ من على رأسهِ و لبسها ... ظهرت خوذةٌ متحركةٌ دونَ أنْ يُمسكها أحدٌ !!

تحركتِ الخوذةُ مُبتعِدةً عن الجُنديِّ القناصِ ، بينما وقفَ الجُنديُّ يتحسسُ راسَهُ بيديْه . ركِبَهُ الهلعُ فأطلقَ ساقيْه للريحِ يلحقُ رفاقَهُ على الدّبابةِ المنسحبةِ ، بينما وَصلتِ الخوذةُ إلى منزلِ فوازٍ وإلى سريرِه ..

احتضنَ فوازُ الغنائمَ ...خوذتينِ وبُندقيةً... خبأهُم تحتَ اللحافِ ، ثمَّ اقتربَ من أمِّه واحتضنَها ونامَ نوماً عميقاً وهو يقولُ : "محمد الدرةُ".."محمدُ الدرةُ" شكراً لكَ. أمّا محمدُ فقد كانَ يسمعُ أصواتَ أطفالٍ آخرينَ ينادونه فأسرعَ إليهم ... محلقاً بجناحيه الملائكيين.

احتضنَ فوازٌ الغنائمَ ، وهو يقولُ : "محمدٌ الدرةُ" .. "محمدٌ الدرةُ" شكراً لكَ.

أمَّا محمَّد فقد كانَ يَسمَعُ أصواتَ أطفالٍ آخرينَ ينادُونه فأسرعَ إليهم ...

محلقاً بجناحيه الملائكيين.